# الصورة الشعرية في مدائح البحتري
# من المكون التشكيلي إلى القراءة الثقافية[1]

نهى مختار محمد

إن قراءة النصوص التراثية العربية تماثل فكرة التنقيب عن الآثار والكنوز التي تحتفظ بها الأمة وتشكل بها ثقافتها وتاريخها وتحدد بها ملامحها وهويتها ، تلك القراءة تتطلب تطبيق مناهج جديدة تعيد اكتشاف تلك الكنوز التراثية وتستخرج منها قيما جديدة من شأنها تعميق فهم التجربة الجمالية والثقافية التي يعكسها الإبداع بوصفه مظهرا حضاريا من مظاهر حضارة الأمم ، ومن شأنها كذلك ربط الماضي بالحاضر وبالمستقبل وإقامة جسور تواصل بينها تجعل للقيمة الجمالية والفكرة الثقافية معينا ممتدا يمكن تلمس آثاره عبر العصور وكشف تحولاته ومساراته وتغيّر ملامحه من جيل إلى جيل.

وفي هذه الدراسة يمثل ديوان البحتري هذا التراث ، الذي يمكن – بإعادة قراءته قراءة بلاغية وثقافية– كشف ملامح جديدة تسكن تجربة الشاعر الدالة على رؤية جمالية وثقافية تشغل مساحة واضحة في تاريخ الإبداع العربي؛ بوصف الشاعر البحتري صاحب بصمة ثقافية يمكن من خلالها استخلاص كثير من ملامح الثقافة العربية في طورها العباسي الذي ينتمي إليه الشاعر الذي يعد امتدادا لعصور سابقة وإرهاصا لعصور قادمة.

**أهداف الدراسة :**

تهدف الدراسة إلى محاولة الجمع بين الدرس الجمالي والدرس الثقافي عن طريق تطبيق ذلك على دراسة الصورة الشعرية في مدائح البحتري التي يمكن من خلال تحليلها التوصل إلى بعض ملامح الرؤية الجمالية والرؤية الثقافية التي يرى بها المبدع تجربته الخاصة التي تتماس مع تجربة الإنسان الكلية في الكون، كما تهدف الدراسة إلى الإجابة عن الأسئلة الآتية :

- ما العلاقة بين الصورة والثقافة في قصيدة المدح كما يمثلها البحتري؟
- ما المصادر الكبرى التي يشكل منها المبدع صوره الشعرية، وما علاقتها بتجربة المدح؟
- ما سمات العالم الموازي الذي يصنعه المبدع عن طريق الصورة والاستعارة؟

---

[1] نوقشت هذه الرسالة بقسم اللغة العربية بكلية الألسن جامعة عين شمس لنيل درجة ماجستير الألسن في اللغة العربية تخصص الدراسات الأدبية في ٣١من ديسمبر ٢٠١٦م، وقد تشكلت لجنة الحكم من: أ.د/ محمد عبد الرحمن شعيب (مشرفا ومقررا)، وأ.د/ حسن أحمد البنداري (عضوا)، وأ.د/ عاطف السيد بهجات (عضوا)، وأ.د/ سعاد صالح عبد المطلب (مشرفا)، وقد قررت لجنة الحكم منح الباحثة درجة الماجستير بتقدير: ممتاز، مع التوصية بتبادل الرسالة بين الجامعات.

- ما الأنساق الثقافية المعلنة والمضمرة التي تسكن الصورة الشعرية وقصيدة المدح؟

**مصادر الدراسة:**

تعتمد الدراسة على ديوان البحتري بتحقيق حسن كامل الصيرفي، طبعة دار المعارف عام ١٩٦٣م، ويشمل الديوان تسعمائة وثلاثا وثلاثين قصيدة ومقطوعة من بينها أربعمائة قصيدة في موضوع المدح تم الاطلاع عليها كاملة واختيار مائة قصيدة منها مادة للبحث، وكانت أسس الاختيار أو المعايير التي تم اختيار القصائد من خلالها كالآتي:

١- شمول القصائد طبقات الممدوحين التي حصرها البحث في [الخلفاء- والوزراء- والكتاب- وقادة الجيوش- والولاة- والعمال- والمعارف العامة والصداقات].
٢- شمول القصائد أنساق المدح المعلنة لديه التي تشمل [المدح على الطمع- والمدح على الحاجة- والمدح على سبيل الرشوة- والمدح على الوفاء].
٣- اختيار القصائد بحسب جدة القصيدة وعمقها وتشكيلها الجمالي بحيث تحقق وفاء وغناء عن استحضار قصائد أخرى مع ضرورة الوضع في الاعتبار سائر الصور الشعرية التي ترددت في القصائد الأخرى التي تم الإشارة إليها في الهوامش لضمان صحة النتائج والحفاظ على منهجية البحث العلمي.

**منهج الدراسة:**

تعتمد الدراسة على المنهج التحليلي في دراسة الصورة الشعرية من وجهة بلاغية عند البحتري، بكشف نوع الصورة وتحديد مجال المصدر ومجال الهدف والجامع بينهما، ثم ينتقل التحليل من المستوى الجزئي إلى المستوى الكلي الذي يعنى بتحديد المجالات الكبرى للصورة والأفق الدلالي الذي يحكم العلاقات المختلفة داخل إطار الصورة، كما تعتمد الدراسة على منهج القراءة الثقافية في قراءة الأنساق المعلنة والأنساق المضمرة في خطاب المدح بوجه عام وفي الصورة الشعرية على نحو خاص.

**خطة الدراسة:** تنقسم الدراسة إلى مقدمة، وتمهيد، وثلاثة فصول، يليها الخاتمة، وقائمة المصادر والمراجع والفهرس.

**المقدمة:** وتشمل أهداف الدراسة، ومصادرها، والمنهج المتبع فيها، ومراجعة لأدبيات البحث والدراسات السابقة، وعرض خطة البحث.

**التمهيد: البحتري ومحيطه الثقافي، وفيه عدة محاور:**

- الميلاد والنشأة.
- ثقافة الشاعر.
- السياق الثقافي.
- التجربة الإبداعية.

**الفصل الأول:** المرجعية والمنظومة الاصطلاحية بين القراءة البلاغية والقراءة الثقافية، وفيه ثلاثة مباحث:

- الأول: مدائح البحتري في ضوء مفهوم مقتضى الحال.
- الثاني: الصورة الشعرية في ضوء البلاغة والمكون التشكيلي.
- الثالث: القراءة الثقافية.

**الفصل الثاني:** الصورة الشعرية في مدائح البحتري "قراءة بلاغية"، وفيه ثمانية مباحث قسمت بحسب مصادر تشكيل الصورة كالآتي:

- صورة الماء/ صورة السماء/ صورة الضياء/ صورة الحيوان/ صورة السيف/ صورة الجبال/ صورة الجواهر/ صورة الربيع.

**الفصل الثالث:** الصورة الشعرية في مدائح البحتري "قراءة ثقافية"، وفيه مبحثان:

**المبحث الأول:** الأنساق المعلنة في قصيدة المدح عند البحتري:

- المدح على الطمع.
- المدح على الحاجة.
- المدح على سبيل الرشوة.
- المدح على الوفاء.

**المبحث الثاني:** الأنساق المضمرة في الصورة الشعرية في مدائح البحتري ويشمل:

- أولا: الموروث الثقافي للصورة المائية.
- ثانيا: الأنساق المضمرة في استعارة الشمس والقمر.
- ثالثا: صورة الممدوح وفكرة التنافس والتسخير والنموذج.
- رابعا: البعد الثقافي في ربط سياق الحرب بسياق الغزل العذري.
- خامسا: توظيف الصورة الجاهلية والصورة الأسطورية.
- سادسا: التورية الثقافية في مدائح ابن وهب.
- سابعا: قصيدة المدح وصورة الآخر في وصف الربيع.

ثم **خاتمة** بأهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة يليها ثبت المصادر والمراجع وفهرس الموضوعات.

**ومن أهم النتائج التي خرجت بها الدراسة:**

كشف ملامح العالم الجمالي الذي شكله الشاعر عن طريق الصورة، وقد تم التوصل إلى عدة نتائج يمكن إيجازها في الآتي :

١- الحقول الكبرى التي تتشكل منها الصورة الشعرية عند البحتري تشمل: العنصر الحيوي، والعنصر الطبيعي، والعنصر الشيئي، أي الروح والطبيعة والجماد، وتكون المحسوسات هي

المنطقة الفاعلة الصانعة للصورة لديه، وهذا يعني أن مجال المصدر –طبقا للتحليل الاستعاري الحديث– ينحصر في الطبيعي والحيوي والشيئي، في حين أن مجال الهدف يستحوذ علية شخصية الممدوح، فهو الغيث والشمس والقمر والنجم والأسد والجبل، ويأتي بعده في مجال الهدف القيم المعنوية المرتبطة بالممدوح: كأخلاقه ورأيه ومذهبه ومقامه، ثم القيم المادية شديدة الارتباط به مثل إنتاجه الأدبي.

٢- سلطة الطبيعة هي الأكثر استحواذا على المعجم التصويري لدى البحتري، فتتشكل الصورة عنده من معطيات الطبيعة من حوله دون الصورة الذهنية أو المغرقة في الخيال، وهذه النزعة الرومانسية المبكرة ربما تعد تجسيدا لقول المعري: "والشاعر البحتري".

٣- استلهام الصورة القرآنية يعد أحد أهم مكونات الخيال لدى البحتري، بوصف القرآن الكريم هو المرجعية الثقافية والمعجمية للرؤية العربية للعالم.

٤- قصيدة المدح عند الشاعر العربي الذي يمثله البحتري في هذه الدراسة تعد لوحة لديها إطار وقلب: الإطار مدح معلن، والقلب رؤية جمالية محضة تتضمن نقدا غير معلن.

٥- الصورة الشعرية في خطاب المدح جعلت للاستعارة طبيعة تبدو وكأنها تنتمي إلى جوهر نظرية الأفعال الإنجازية، لتتحول الاستعارة الجمالية إلى استعارة إنجازية إن صح التعبير، لا يمكن الاعتراف بها إلا بتطبيقها تطبيقا عمليا يحاكي أثر الشمس والقمر والنجوم والماء والجبال دون الاكتفاء بإشباع الجانب الجمالي الذي تعكسه هذه الصور، وإنما بتجاوزه إلى وجوب استحقاق تلك الصور الشعرية عن طريق الفعل المنجَز الملموس.

٦- الاستعارة تعدّ ممارسة فنية لعملية الإحلال والتبديل والتوفيق، فالشاعر يتحرر بالاستعارة من مرجعية الممدوح الذي يتكرر باستمرار في القصيدة ويحل محله صورة كونية بناء على معجمه التصويري بما يعطي نظرة أوسع للعالم، وفي الوقت نفسه تكون تلك الصورة قناعا جماليا يخفي به شيئا من ملامحه، ويحرره من القيود الإنسانية المرتبطة بالزمان والمكان إلى صورة كونية جمالية ذات مساحة أكبر ومجال مرئي أوضح وأشهر.

٧- دراسة الأنساق الثقافية المعلنة في قصيدة المدح عند البحتري كشفت عن عدة نتائج أهمها:

- في نسق المدح على الطمع: تبين أن هناك عاطفة أقوى من الطمع هي التي تتحكم في المرسل إليه في تجربة المدح في العصر العباسي، وهي الرهبة التي أعلن عنها ابن الرومي في قصيدة ذم القمر في قوله:

**لا لأجل المدح بل خيفة الهجو أخذنـــا جـــوائز الخلفـــــــاء**

- استعارة الصورة الشعرية من مجال المنسوجات عن طريق تشبيه قصائد المدح بالثياب والوشي والبَرود وتشبيه الشاعر بالنسّاج يعكس إدراك الشاعر لدور قصيدة المدح في تزيين المرجع/ شخصية الممدوح وتجميله وستره وحمايته وإخفاء عيوبه.

- في نسق المدح على الحاجة: تبين أن توظيف البنية الاستفهامية باستخدام (هل والهمزة) للدلالة على الطلب يبدو على المستوى السطحي تأدبا مع الممدوح وترك حرية الاختيارله في أن يقبل بـــ (نعم) أو يرفض بـــ (لا)، وقد مثَّلَ هذا في ميزان النقد والبلاغة النموذج الأمثل للطلب فيما يحويه من جمال وخلق، في حين أن القراءة الثقافية لعمق العلاقة بين المادح والممدوح تفسر ثنائية (نعم أو لا) تفسيرا يجعله في الحقيقة بين خيارين: قصيدة المدح أو قصيدة الهجاء.
- في نسق المدح على الوفاء: تبين أن الاستعانة بكتب التراجم تعمق القراءة الثقافية حيث تقدم أحيانا السياق الخارجي المحيط بالتجربة الإبداعية، تمثل ذلك في نسق المدح على الوفاء الذي كشف عن فكرتين أصيلتين في الثقافة العربية:
- الأولى: رسوخ ثقافة مكافأة الشاعر المدّاح مهما كان عليه المانح من ضيق وعوز، حتى وإن كان الشاعر صادق الزهد فيما عنده، ويمثل ذلك خروجا عن القانون الثقافي الذي يفترض تحكم عاطفة الرهبة بشكل أساس في سلوك المرسل إليه.
- الثانية: تقديس العربي –الذي يمثله في هذه الدراسة أحد ممدوحي البحتري– لقيم الوفاء والجمال والإبداع جعلته يؤثر أن يبيع بيته ليسكن بيت الشعر على أن يسكن بيتا من جدران وحجارة زائلة، وبهذا يحيا في الذاكرة الجمعية للأمة، مصاحبا كل قارئ لديوان العرب،فيتردد ذكره مع الإبداع الذي يتردد إيقاعه أبد الدهر.

٨- دراسة الأنساق المضمرة في قصيدة المدح عند البحتري كشفت عن عدة نتائج يمكن إيجازها في الآتي:

- إن التراسل بين الماء والأخلاق في المعجم التصويري لدى الشاعر يفضي إلى رؤية حضارية ترتبط مقوماتها بالماء كما ترتبط بالأخلاق على نحو من المساواة.
- غزارة الصورة المائية في ديوان البحتري وجعلها أصل الصورة لديه بحيث تشغل المساحة الكبرى من مساحة التصوير يتماهى مع الرؤية الإيمانية للعالم التي تجعل الماء أصل كل شيء حي، في قوله تعالى: "**وجَعلنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيءٍ حَيٍّ**" [الأنبياء٣٠]، وبهذا تكتسب القصيدة عنصر الحياة بفضل العنصر المائي الذي يجري بداخلها، وبالتالي فإن الممدوح في إطار هذه الفكرة يكون عليه مسئولية الحفاظ على تلك الحياة.
- استعارة الشمس والقمر في صناعة الصورة المدائحية أثرى القراءة الثقافية بدلالات عدة تجعلهما تجسيدا لأنساق مختلفة تسكن البنية العميقة للصورة، فتجعل تعاقبهما تجسيدا لنسق الخلافة التي ينبغي أن تسير سير السنة الكونية في التخالف السالم المحمود المتكامل، تلك السنة التي افتقدها قانون الخلافة في العصر العباسي الذي ينتمي إليه البحتري. كما أفضت استعارة صورتي الشمس والقمر إلى نوع من تحقيق المساواة الجمالية بين البشر الذين

ساوت الصورة الشعرية بينهم وحققت لهم وجودا مشتركا ينقل ميزان التفاضل بين البشر من الأسس القائمة على العنصرية والطبقية إلى ميزان أخلاقي يتفق مع الرؤية الإسلامية التي تجعل أساس التفاضل بين الناس بالتقوى والعمل الصالح.

- ارتباط سياق الحرب بسياق الغزل العذري الذي كشفت عنه قصيدة المدح اعتمد في التحليل الثقافي على النظرة الثقافية للمرأة بوصفها وطنا وسكنا، وهذا يخرج شخصية القائد من إطار العدو المغتصب إلى إطار شخصية الفاتح المنتَظَر والمحرر السلمي المعشوق.
- ظاهرة التورية الثقافية أو التوجيه البلاغي في قصائد المدح تعد نوعا من تمرد الشاعر على صفة النفاق التي تصاحب نسق المدح عادة في العصر العباسي، وذلك بالتعويل على ذكاء المتلقي في فهم تلك التورية وكشفها عن طريق إزالة الغطاء الجمالي الذي غلف به الشخصية عبر تحليله تحليلا يعتمد على مرجعيات لغوية وثقافية مختلفة.
- توظيف الصورة الجاهلية والصورة الأسطورية في الخطاب الشعري يحفظ لتلك الصور وجودها وحضورها وبها تكون اللغة متحفا للتقاليد والموروثات القديمة حتى لو افتقدت تلك الصور البعد السلوكي أو الوجودي أو الحيوي.